تكامل الرؤية المعرفية في تصور عناصر بناء الحضارة عند مالك بن نبي

د.رقية بوسنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

تطرح الكثير من الأدبيات العلمية، مصطلح التكامل المعرفي لإيجاد حال التآلف بين العلوم المختلفة ومجاورتها وهي عودة للبحث عن الفكر الموسوعي الذي كان يشتغل ويعالج الظواهر والأفكار والقضايا، وهو ملم بمختلف المعارف العلمية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والإقتصادية، والأخلاقية، التي تخدم الفرد والمجتمع والدولة والأمة، فقدمت لذلك أهم النظريات، وأسس المدارس الفلسفية الكبرى، التي تحولت إلى مناهج للحياة الإنسانية جمعاء.

وفي هذا البحث يتم التركيز على موضوع هام جدا، هو الحضارة والعناصر المشكلة لها وهي:الإنسان، و"التراب"، و"الزمن"، ومدى حضور الرؤية المعرفية التكاملية بينها، وقد تبدو المسألة معقدة نوعا ما، لأن مجالاتها واسعة جدا، فالإنسان تتجاذبه الكثير من النظريات الكبرى المفسرة لنشأته، وهو بالنهاية أساس الحضارة لأنه الفاعل الأول في عناصرها الأخرى.

كما أن "التراب" – الأرض أو الجغرافيا- يحمل دلالات ومعاني كثيرة: القانونية والسياسية، والديموغرافية، والجيولوجية، والاستراتيجية، وهو منشأ للأجناس البشرية المختلفة، ومكان للبنيان والصنائع المتنوعة، فهو الجانب المادي لهذه الحضارة منه تستمد قوتها وازدهارها.

و يعد "الوقت" المجال الزمني الذي تظهر فيه الحضارات أو تأفل، وهو قيمة معنوية لا تقاس بالساعات، وإنما يقاس بمدى التخطيط والاستثمار في دائرته، والتعامل مع الوقت بحكمة وتدبر يولد حضارة قوية ومتماسكة.

ولا يمكن لهذه العناصر أن تتفاعل وتنتج الحضارة، إلا بمقوم أساسي، هو الدين الذي ينظم الحياة في كل المستويات، ومهما اختلفت النظريات في أهمية هذا المقوم وفاعليته، ومهما حاولت وتحاول أخرى استبعاده من تسيير شؤون البشر، فإنها سوف تكون مغالطة تاريخية وآنية لأن الواقع التاريخي، والحاضر يثبتان صحة الحضور الديني في كل المستويات. وهو كذلك في الفكر الموسوعي لمالك بن نبي، والذي يمكن عرضه من خلال المحاور الآتية: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي، العناصر المكونة للحضارة، الرؤية التكاملية لهذه العناصر، الإسناد المعرفي حول هذه الرؤية.

أولا: الإشكالية

تشكل كتابات مالك بن نبي مجالا خصبا للحديث على تكامل المعرفة، حيث ينطلق في طرح أفكاره ومعالجتها من رؤية كونية إسلامية ورؤية إنسانية، تصور كلاهما عناصر بناء الحضارة والمختزلة في ثلاثية معيارية هي الإنسان، والتراب، والزمن، وإذ تتأكد هذه الرؤية التكاملية في فكر مالك بن نبي فإنها تؤكد على أن المفكر يدرك مالها من فوائد علمية حاضرة ومستقبلية في صنع التوازن لدى المسلم المعاصر، الذي يرتبك عادة أمام بعض الأطروحات الحداثية التي تقصي البعد الإسلامي من التصور الريادي للمفاهيم المختلفة التي

تشترك فيها الإنسانية جمعاء، باعتباره تصورا ساد في فترة تاريخية مغايرة تماما لما تعيشه البشرية اليوم من تطور محقق في جميع المجالات.

إن هذه النظرة الإقصائية للتصور الإسلامي لم تثن مفكرين من أمثال مالك بن نبي أن يوضح في كتاباته المجموعة ضمن سلسلة مشكلات الحضارة من أن يكتب وفقا للتصور الإسلامي ويستشهد بالنصوص الشرعية من القرآن والسنة ليؤكد السبق المعرفي والاستيعاب الحضاري لكل قديم وحديث من مفاهيم وإشكالات وقضايا أخلاقية واجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية وهي في كلها كمركب جزء من مفهوم أعم هو الحضارة.

لقد جاءت فكرة الموضوع لتناقش هذا التصور المتميز لباحث متميز عايش حضارتين مختلفتين هما الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، لتوضح اعتدال هذا الفكر في طرح وتعزيز رؤية التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية والعلوم الأخرى التي يصبو هذا المؤتمر من خلال محاوره طرحها ويدعو إلى تحليل أطرها والكشف عن المشكلات التي تعترضها، فجاء التساؤل الرئيسي: هل هناك تكامل معرفي في تصور عناصر الحضارة عند مالك بن نبي؟ ويتفرع عن هذا السؤال تساؤلات فرعية هي:

1- ما مفهوم الحضارة في فكر مالك بن نبي؟

2- ما هي عناصر الحضارة في فكر مالك بن نبي؟

3- كيف تتوضح الرؤية التكاملية لعناصر الحضارة في فكر مالك بن نبي؟

4- هل هناك إسناد معرفي للرؤية التكاملية عند مالك بن نبي؟

وتنبع أهمية هذا البحث من كونها تنطلق من مفاهيم ودلالات هامة كالآتي:

ـ موسوعية فكر مالك بن نبي التي تعد مجالا خصبا لأبحاث كمية ونوعية تحاول إبرازها في مجالات متعددة.

_استيعاب عناصر الحضارة من إنسان وتراب وزمن للمشكلات التي تطرح على مستوى محلي وإقليمي ودولي.

_التأكيد على أن الدين مقوم أساسي من مقومات أي حضارة وهو الفاعل فيها، وفي بنائها وتطورها وازدهارها.

_الرؤية المنهجية لمالك بن نبي في طرح مفهوم الحضارة وعناصرها وتكاملها ضمن الأطر المادية والتجريبية والأخلاقية.

_ إسهامات بن نبي لوضع حلول لبعض المشكلات الخاصة بالإنسان والتراب والزمن واستشراف هذه الحلول المناسبة لواقعنا الإسلامي.

- فكرة التكامل المعرفي التي يدعو إليها الكثير من الباحثين، لإيجاد تجاور بين العلوم الدينية والعلوم الإنسانية، والتي تسهم في بناء حضارة قوية تعيد للإنسان هيبته ومقامه ووظيفة الخلافة وعمارة الأرض.

وتتوخى الباحثة من خلال هذا البحث الإجابة على كل تساؤلاته، عن مفهوم الحضارة، وعناصرها، والرؤية التكاملية لها، والإسناد المعرفي لهذه الرؤية، بالإضافة إلى التأكيد على أهمية فكر بن نبي الذي استوعب المعارف المختلفة ووظفها في إطار ما يسمى بالإحياء الحضاري الجديد الذي يؤكد على البعد الديني فيه، ثم الاعتراف بمجهوداته المعرفية التي قدمها لذلك.

تعتمد الباحثة في هذه الورقة المنهج الاستقرائي، والاستقراء هو عملية استدلال صاعد يرتقي فيه الباحث من الحالات الجزئية إلى القواعد العامة، أي انتقال من الجزئيات إلى حكم عام، ولذلك تعتبر نتائج الاستقراء أعم من مقدماته، ويتحقق الاستقراء من خلال الملاحظة والتجربة ومختلف تقنيات البحث المتبعة[1].

[1] أ. لارامي، ب.فالي: البحث في الاتصال "عناصر منهجية"، ترجمة، ميلود سفاري وآخرون:، مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منثوري، قسنطينة، الجزائر، 2004، ص 54.و عبد العالي المنفي: المنهج الاستقرائي عند الإمام الشاطبي، http://www.diwanalarab.com/spip.php

ثانيا: مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

ينطلق مالك بن نبي في مؤلفاته المتعددة من وحدة تحليل أساسية هي الحضارة باعتبارها النقطة البعيدة التي ينبغي أن يؤول إليها كل تغير اجتماعي إيجابي وقد ناقشها من زوايا عدة: من حيث جوهرها ومبدئها وباعتبار وحدتها وعلاقتها بمنتوجاتها ومن حيث تركيبها ووظيفتها[1].

و نقطة تشكل أو إطلاق كلمة الحضارة هي بداية دخول مجتمع ما مرحلة التاريخ بصفة متحضرة، عن طريق فكرة أساسية هامة "إن حضارة ما، ما هي إلا نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ماقبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي، يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى"[2].

وتعبر كلمة "الحضارة" عن: "مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي(البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها"[3]، فدور الأفكار في حضارة ما لا يقتصر على مجرد الزينة والزخرفة...ففي فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي، لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة مهمة.[4]

و الحضارة هي:" مجموع منسجم من الأشياء والأفكار، بصلاتها ومنافعها وألقابها الخاصة وأماكنها المحددة، ومجموع كهذا لا يمكن أن يتصور على أنه

[1] الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، لبنان، 2006، ص120.

[2] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، سوريا، ط9، ، ص41.

[3] مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009، ص 50.

[4] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المرجع السابق، ص42.

مجرد تكديس، بل كبناء وهندسة، أي تحقيق فكرة مثل أعلى"[1]، وتعني أيضا: مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه[2].

و تعتبر الحضارة الناتج الحاصل ضرورة عن حركة المجتمع، وهي حركة شاملة في مجال الفكر والاقتصاد، وفي رحاب التوازن الروحي والمادي، ومن دون هذه المسألة لن يكون المجتمع مجتمعا[3]، "فهذا التحديد الوظيفي يجعل الحضارة تتمثل في جانبين، الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية، في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية، في صورة إمكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته، أي بالوظيفة الحضارية"[4].

" وتكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع، عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة، فإن لها حياة اجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة، والخلاصة، أن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد

[1] مالك بن نبي: فكرة الافريقية، الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009، ص 84.

[2] مالك بن نبي: أفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، دت، ص 47. في أسعد السحمراني، مالك بن نبي"مفكرا إصلاحيا"، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986، ص 144.

[3] أسعد السحممراني، المرجه نفسه، ص 144.

[4] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر سوريا، ط9، 2009، ص 61.

المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية وهو ما يطلق عليه اسم الحضارة".[1]

يرى مالك بن نبي أن الحضارة في مجموعها ناتجا للإنسان والتراب والوقت، وهي في مجموعها تحتاج إلى مركب ينتج ويمزج بين عناصرها وهو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ[2].

ويميز مالك بن نبي بين الحضارة الشيئية والحضارة الحديثة، فالأولى: تشتري الأشياء العديدة وتكدسها ولا تستفيد منها، وهذه حال العالم الإسلامي، والثانية: تخطط وتنتج وفق منهج فني تطبق فيه قوانين الكيمياء الحيوية والديناميكية الخاصة أثناء التكوين والتطوير، حال الصين وروسيا واليابان.

ويوضح بن نبي في معرض المقارنة بين نشأة الحضارتين المسيحية والإسلامية، أن تطورهما لا يختلف، "فهما تنطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص وتوجهه إلى غايات سامية، فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيئ أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية...فالحضارة تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي[3].

و يوضح جيزو أن تركيب الحضارة الأوروبية، كان من عمل الفكرة المسيحية:" تلكم هي السمة العظيمة الأصيلة للحضارة الأوروبية، منذ أن تطورت تحت تأثير الإنجيل تأثيره الظاهر والخفي، المنكر أو المرضي، حيث عاش القهر والحرية وكبرا معا"[4].

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر سوريا، ط6، 2006، ص 18.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 50.

[3] المرجع السابق، ص 48-56.

[4] مالك بن نبي، ميلاذ مجتمع، مرجع سابق، ص60.

ويجلي مالك بن نبي هذا التوجه بالبرهنة على أن الشيوعية ليست مذهبا ماديا فقط، بل في جوهرها ما يفيد التوجه الروحاني:"تعد الشيوعية النظرية قبل كل شيئ فكرة ماركس، ولكن هناك شيوعية واقعية، هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بالقوى الداخلية نفسها التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور، أولئك الذين شهدوا مولد الحضارات، فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي، ومحددة هنا وهناك بسلوك الفرد حيال مشاكل المجتمع الناشئ"[1].

لقد حاول مالك بن نبي إيجاد الصيغة الملائمة لبلورة فكرته القائمة، على وجود المركب الحضاري المتمثل في الفكرة الدينية التي توجد الفرص المعززة للتفاعل، الكهروحضاري، المولد للمشهد المرغوب فيه من قبل فئة أو جماعة تنطبق عليها صفة التغيير نحو الأفضل، والفاعلية، فإذا ما انكفأت جماعة ما يربطها وازع ديني هادف ومنسجم، مع تطلعاتها وآفاقها، وحققت الانسجام المطلوب الذي تنشده الفكرة الدينية، فقد غيرت من وضعها السلبي نحو المجاوزة والمبادرة، والتأسيس لمشهد معين من المشاهد الحضارية المنبثقة والمتألقة تنعكس على الجماعة الاولى وهي المنطلق.[2]

و الحضارة شرط من الشروط اللازمة لأي اجتماع بشري مستقر، وسقوط حضارة أي مجتمع، هو سقوط للوجود المميز لهذا المجتمع، وتذويب لشخصيته، كما أن أي اجتماع بلا حضارة لها صفة التطور، سيكون اجتماعا تغلب عليه صفة البدائية، وتسوده شريعة الغاب، وذلك يتنافى مع تحقق إنسانية الإنسان، ولعل دروس تاريخ الحضارات في العالم تؤيد ما تصوره مالك بن نبي

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 60.

[2] بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2005، ص 75.

حول الحضارة، فالعرب مثلا بعد أن كانوا بدوا في الجزيرة العربية أو خارجها، فإذا بالإسلام يبعث فيهم روح التآلف ويدفعهم إلى التحضر[1].

سادسا: العناصر المكونة للحضارة

يحدد مالك بن نبي العناصر المكونة للحضارة في ثلاثية معيارية متآلفة هي الإنسان والتراب والوقت، ويؤكد على عنصر رابع يمزج ويركب هذه العناصر، فتارة يسميه بالأخلاق، وتارة بالفكرة الدينية، وأخرى بالقيم الإسلامية، ولا تكاد تخلو مؤلفاته جلها من الإشارة تصريحا أو تلميحا لهذه العناصر ، وسيتم تناولها وتناول ما ينضوي تحتها بإيجاز يراعي خصوصية الكتابة للمؤتمر.

1- **الإنسان:**

أولى مالك بن نبي عناية بالغة بالإنسان في معالجته لمشكلات الحضارة، انطلاقا من قيمته ودوره في التاريخ، وباعتباره الأساس الذي من خلاله تنطلق الحضارة في مراحلها الثلاثة، حيث يكون في البداية ساكنا خامدا ثم عنصرا حضاريا فعالا، أو جزئيا محروما من كل قوة دافعة عندما تبلغ هذه الأخيرة نهايتها المحتومة، وهي مراحل متدرجة تعبر عن حركة الإنسان حينما يستغل مابين يديه من عنصري التراب والوقت[2].

والإنسان عند مالك بن نبي يؤثر في المجتمع أو الحضارة بثلاث مؤثرات هي: الفكر، والعمل، والمال، وقضيته منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث: توجيه الثقافة، توجيه العمل، توجيه رأس المال وفكرة التوجيه هي قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة الهدف.

"فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت، فهناك الملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم أن يدار هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد

[1] أسعد السحمراني: مرجع سابق، ص 143.

[2] الطاهر سعود، مرجع سابق، ص 207.

والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والانتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية، وبلغة علم الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى الجماعة ومعنى الكفاح"، وحين يتحدث مالك بن نبي عن توجيه الثقافة فهو يدعو بداية إلى تحديد ما نحن عليه من أوضاع بطريقتين: الأولى سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي، والثانية إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل[1]، ويضع لذلك التوجيه محاور محددة ينطلق منها هي:

- الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.
- الجمال لتكوين الذوق العام.
- المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو الصناعة.

يقول مالك بن نبي: "لا تكتمل ثقافة الإنسان إلا بتحقق أربعة أشياء: المبدأ الأخلاقي، وذوق الجمال، والمنطق العملي، والعلم أو الصناعة، وهي مبادئ كفيلة بجمع شروط الفعالية."[2]

و يذهب مالك بن نبي في تحليل المحور الأول إلى أن المبدأ الأخلاقي هو روح الإسلام الذي تؤلف بين الناس وتؤدي إلى قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي هذه القوة تعبر عن الإسلام المتحرك في العقل والسلوك، وهي جديرة بأن تؤلف الحضارة المنشودة، وبذوق الجمال الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، وتوخيا للكريم من العادات.

[1] مالك بن نبي، ميلا مجتمع، مرجع سابق،ص84- 86.

[2] مالك بن نبي: مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009، ص151.

و في حديثه عن محور الجمال، وهو محور تتهذب به الأنفس، والطبائع، وتقوم به السلوكيات الراقية، وهو معيار مهم لتقدم الإنسان وفعله في محيطه، والذي يتجلى في علاقته بأخيه الإنسان والأشياء، والبيئة، يقول: "ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية ويجب إعداده حتى يصبح المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع، والواقع أن أزهد الأعمال له صلة كبرى بالجمال، فالشيئ الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال، أو تنضح بالقبح، ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان وفي عمله وفي السياسة التي يرسمها لنفسه، بل حتى في الحقيبة التي يحمل فيها ملابس سفره، ولعل من الواضح أننا أصبحنا نفقد ذوق الجمال، ولو أنه كان موجودا في ثقافتنا، لسخرناه لحل مشكلات جزئية، تكون في مجموعها جانبا من الحياة".[1]

و يلح بن نبي في المحور الثالث على الفعالية وهي ربط منطق الفكرة بمنطق العمل من أجل القضاء على العقم الاجتماعي، أو -السلبية المجتمعية-، التي تجعل من المسلم يتكلم عن مبادئ القرآن الكريم ولا يعيش وفقها، ويتم ذلك تحديدا في معرض المقارنة بين الجيل الأول في الدولة الإسلامية، والجيل المعاصر[2].

يقول:"ونحن أحوج ما نكون إلى المنطق العملي الذي يبين طريقة ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، لأن العقل المجرد متوفر، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكون معدوما، إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافاعلية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث والمحاولات الهازلة، وإننا إذا ما أردنا حصرا لهذه القضية فإننا نرى سببها

[1] مالك بن نبي:شروط النهضة، مرجع سابق، ص 96-98.

[2] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار، ط2، 2007، ص 111.

الأصيل في افتقادنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفهن بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله وفي كل خطوة نخطوها"[1]

و يرى بالنسبة للمحور الرابع أن "الصناعة" ليست ذلك المعنى الضيق، فالمقصود من هذا اللفظ بصفة عامة في البلاد الإسلامية كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة، وأبسطها رعي الغنم ومما يدلنا على القيمة الاجتماعية لهذه الحرفة المتواضعة أن لها مدرسة أهلية في فرنسا، فلو رأينا الراعي الخريج من هذه المدرسة والراعي العربي يقود كل منهما قطيعه لعلمنا أي فرق بينهما؟ ومن المسلم به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده، ولكنها للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمراره[2]. والتقنية أو الصناعة أو العلم، منذ أن قامت الإنسانية بما يسمى تقسيم العمل، أي منذ عشرة آلاف من السنوات أو أكثر أصبحت هناك تقنية موجودة وعمل مصنف[3].

وتحضر في كتابات مالك بن نبي سياقات متعددة تحيط الإنسان بمنهج واضح يؤدي إلى فاعليته في العناصر الأخرى، أي "التراب"، و"الزمن"، فينطلق في بعضها من البعد الإيماني وهو بذلك يدعو إلى تفعيل العقيدة وحضور الدين في الحياة الاجتماعية، فالعقيدة وقود الدين، ولا تعني الركون إلى زوايا التخلف والكسل، فهي عامل إبداع وتأثير على كل المستويات يقول:" فالمسلم لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا متدينا، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية، وصار الإيمان، إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي وعليه فليست المشكلة أن نعلم

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق، ص 102،103.

[2] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، 2009، ص 88.

[3] مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، سورية، 2009، ص 111.

المسلم عقيدة هو يملكها، إنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي"[1].

و النظر في التاريخ يجعل من الفرد يشهد دور الدين في حيويته، وهو يحقق عمله الاجتماعي بطريقة غير مباشرة، حين يهدف إلى غاياته الخاصة، فهو حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، وهو يخلق بعمله هذا شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمة الخلافة، وهو بذلك يربط أهداف الوحي بضرورات الأرض[2].

و يسوق مالك بن نبي مجموعة من النصوص الذي تأخذ من البعد النفسي للإنسان ورعايته وتنميته ما يحفظ توازنه ويعمل على الارتقاء به فيؤكد على ضرورة التخلص من نفسية التساهل وتتفيه الأمور، ونفسية الصعب والاستحالة وهما حالتان يشعر بهما كل فرد يحاول أن يقوم بعمل معين، فتنتابانه من حيث لا يشعر أو يشعر، فتعطلان بذلك الكثير من إيجاد الحلول لمشكلات وقضايا مهمة كبيرة كانت أم صغيرة، يقول مالك بن نبي عن نفسية التساهل:"ومن وجهة النظر النفسانية يجب أن نبين أن خط السير لنشاطنا الشخصي أو الجماعي يجب أن يمر بين دهانين يبدو أنهما ينتابان سائر البلاد الإسلامية وهما ذهان الشيء السهل الذي لا يستدعي أي مجهود، والذي يستميلنا إلى الكسل، وذهان الشيء المستحيل الذي يجعلنا نحكم مسبقا ومن أول وهلة بأن النشاط فوق مستوى وسائلنا، مما يفضي بنا إلى الشلل التام.[3]

و يقرب بن نبي مفهوم الذهانيين بصورة من واقع الأمس البعيد، والذي بات حقيقة في واقعنا اليوم، فاليهود أصبحوا قوة يحسب لها ألف حساب فقد تطورت دولتهم بشكل يجعلها الفاعل في الساحة الدولية: "فكم من أمور

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي، دار الفكر، سورية، 2009، ص 54.

[2] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر، سورية، 2009، ص 79.

[3] مالك بن نبي:القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009، ص 111.

وقضايا حقرناها وصارت عظيمة، نظرنا في الجزائر إلى اليهود نظرة احتقار وعدم التعامل معهم على أنهم قوة سياسية واقتصادية واجتماعية على غرار تعامل أمريكا وفرنسا وبريطانيا"[1].

و يحذر بن نبي من حالة اليأس والقنوط، التي تثير القلق والركون إلى الخوف من كل شيء، وهي حالة يشعر فيها الفرد بان كل شيء انتهى فيصاب بالشلل في العلاقات ويفقد حيويته ونشاطه في النفع والانتفاع، يقول:"أن لا يفقد الإنسان من نفسه معنى الخير كله مهما أحاطت به دوافع الشر، لأن الأصل في قلبه الخير والشر عارض، إن من يرفع راية الخير قد يسد حاجة تشعر بها الإنسانية في أعماقها، ويحقق لنفسه مكانا كريما في المجتمع العالمي، وفي هذا المجال يمكن أن يكون مجالنا إذا حققنا في سلوكنا معنى الآية الكريمة:" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير..."(آل عمران:104)، فإذا ما تحققت هذه الآية في سلوكنا العام بوصفها تخصصا لمجتمعنا بالنسبة لجاجة الإنسانية فسوف نكون قد لقينا على الخريطة الايديولوجية لونا يجعلنا من أكرم سكان العالم فالخير شرط لدخول المجمع العالمي وهو حاجة من حاجات الإنسانية الكبرى"[2].

و يدعو بن نبي ونفيا لحالتي اليأس والقنوط، إلى مواجهة المشكلات باستبشار وإ قبال ، لا بالعبوس والنفور، فالاستبشار أداة لتوليد طاقة إشعاعية تعمل على إضاءة الزوايا المظلمة التي تعيق العمل في إطار حل المشكلات الكثيرة والمتنوعة التي يواجهها الفرد والمجتمع، وهو بذلك ينقلها إلى فضاء الاستمرارية وفرض الذات، ويجنبها حالة العبوس والنفور باعتبارهما طاقات سلبية تشل الحركة والدافعية لأي فرد أو مجتمع نحو الإبداع، "فمن العبث أن

[1] مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق،ص30.

[2] مالك بن نبي: تأملات، المرجع السابق، ص 216، 217.

نفكر بأننا نستطيع التغلب على المستحيل لأنه مستحيل ونحن الذي حكمنا عليه بذلك".[1]

و يعرض مالك بن نبي معايير هامة، ترتقي بالإنسان من مستوى التفكير والسلوك إلى مستوى الحضارة أو الدين وذلك للتمكن من بلوغ قممه واكتشاف قيمه، ثم النزول إلى الهضاب المتعطشة، بقية الحضارات، وسقيها بالحقيقة الإسلامية والهدى، فيضاف لها بعدا جديدا والإنسان إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية، وإنما بوصفه إنسانا معاصرا للناس شاهدا عليهم شهادة الصادق الخبير الواعي لقيمة شهادته فعندئذ سيرتفع مستوى الحضارة[2].

ويقوم كل ذلك على مجموعة شروط تحقق أمرين: الاقتناع والإقناع أولا لأن فاقد الشيء لا يعطيه فلا يمكن للمسلم إن لم يقتنع بأن له رسالة وهي أن يبلغ الآخرين هذه الرسالة، أو فحوى هذه الرسالة، أو مفعول هذه الرسالة...يجب على المسلم أن يضطلع برسالته، أن يفكر في إعجازه، وإعجازه لا يتأتى إلا بتحقيق شرط جوهري، وهو تغيير ما بنفسه وتغيير ما في محيطه مصداقا لقوله تعالى:"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغييروا ما بأنفسهم. (الرعد:13)

يجب على المسلم ضمن سلسلة التغيير أن يعرف نفسه دون مغالطة، وأن يعرف نفوس الآخرين من دون كبرياء وتعال، وبكل أخوة وصدق وإخلاص، أن يحبهم لوجه الله، حتى تصل إليهم حرارة الإسلام وحرارة الحب الإسلامي وكل ما يناط بمفهوم التغيير يجب أن يتوخى فيه أمرا ألا وهو جانب الصحة وجانب الصلاحية.[3]

[1] المرجع نفسه، ص30.

[2] مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، سورية، 2009، ص 28،29.

[3] المرجع السابق، 36-45.

ويشير أيضا إلى أهمية إعادة الثقة بالذات، باعتبار أن المسلم هو صاحب رسالة، فالثقة تمنح المسلم المكلف بحمل رسالة الإسلام، الشعور بالراحة والاطمئنان والإنطلاق إلى العمل من غير كلل ولا ملل:" أن يساهم المسلم في بناء مجتمعه كي يستطيع أن يتكلم مع الآخرين ندا إلى ند والمسلم اليوم لا يتكلم ندا إلى ند بل يتكلم كإنسان منبوذ، لا يسمعه إلا بعض من وهبهم الله عقولا كبيرة يستمعون للفقراء أما الآخرون فهم لا يسمعون للمسلم، وعليه أن يستمر في تبليغ دعوة عطل تبليغها منذ ثمانية قرون، وهو المسئول عن هذا التعطيل، إنه لا يستطيع ذلك، ولذلك يجب أولا أن نبني مجتمعا يكون في مستوى عالمية الرسالة، ثم في مستوى البشر الذين نبلغهم"[1]

وعلى المسلم أن يتجاوز مشكلة النقص أمام الآخرين، فالإسلام انتشر عن طريق أولئك الأعراب وفيهم الفقراء فقد كانوا يعلنون في أقوالهم ومخاطبتهم للآخرين سواء من أهل الفرس أو من الروم، كانوا يقولون لهم: لقد أتينا لننقذكم، ولم يشعروا بمركب النقص، فالإمكانات الحضارية المتكدسة أمامهم في فارس أو بيزنطة لم تبهرهم ولم تفرض عليه الشعور بالدونية أو النقص، لقد كانوا يشعرون بإرادة حضارية تفوق كثيرا ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر.[2]

و لا يغفل بن نبي الناحية العملية فيدعو عبر كتاباته إلى إنشاء العلاقات الاجتماعية والحرص على أداء العمل المشترك وتغليب مصلحة الجماعة على المصلحة الفردية: "فالمجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد، وإنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية، ونضيف أن عمل المجتمع ليس مجرد اتفاق عفوي بين الأشخاص والأفكار والأشياء،

[1] مالك بن نبي: مجالس دمشق، مرجع سابق، ص 70،69.

[2] مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته، مرجع سابق، ص 35

بل هو تركيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة، التركيب الذي يحقق معه ناتجه في اتجاهه وفي مداه تغيير وجوه الحياة، أو بمعنى أصح، تطور هذا المجتمع".

يقدم مالك بن نبي أنموذجا لمجتمع نجح في فترة تاريخية مشرقة عبر نسج العلاقات الاجتماعية نسجا محكما يقوم على الإيثار والمحبة والتعاون والتكافل والتنازل للصالح العام:"و المعلوم أن أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال شبكة العلاقات الاجتماعية، هذه الأخيرة تعتبر العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده، ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الاسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار والمهاجرين...إن أصل شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يتيح لمجتمع معين أن يؤدي عمله المشترك إنما يكمن في تخلق تركيبه العضوي، وعندما تصاب الذوات بالتضخم فالعلاقات تصبح فاسدة، ويصبح العمل المشترك صعبا ومستحيلا إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات بل للعثور على الأدلة والبراهين"[1]

و يرى أن الفاعلية وهو مفهوم يؤكد عليه في الكثير من السياقات ومنها سياق العلاقات الاجتماعية وتقسيم العمل، تنمو تدريجيا مع تعقد المصلحة أي أن الانتاج الاجتماعي يرتقي بقدر ما يكون النشاط الفردي موجها لسد حاجات غير فردية، وبعبارة أخرى بقدر ما يكون موجها لمصلحة عامة، فإذا كانت المصلحة هي التي تفسر لنا الفاعلية، فما هي المؤثرات التي تختلف باختلاف المصلحة في عصور مختلفة أو في مجتمعات مختلفة[2]

كما يؤكد على أهمية التخطيط والاعتماد على الذات، ذلك أن الخطة ينبغي أن تتوقع في إطارها المفاهيمي كما في إطارها التنفيذي كل الشروط المعنوية والمادية لنجاحها، وهي مجموعة شروط تحدد تماما التقنية المعقدة

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 27-34.

[2] مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق، ص 36.

للخطة، ولكن واحدا من هذه الشروط التي تمس مباشرة الجانب التقني للخطة هو وحدة المفهوم، والتخطيط في بلد في طور النمو يهدف أساسا إلى تحريك كامل طاقاته وموارده البشرية والمادية تحريكا يؤدي إلى خلق ديناميكية اجتماعية، وبابتعاد أحد عناصر هذا التخطيط مهما كان ضئيلا عن القياس العام للمجموع، أو عن القواعد الأخلاقية الملازمة للعمل الجماعي لا يمكن بالنتيجة إلا أن يؤثر سلبيا على توازن الديناميكية التي يراد خلقها، ويفقد التخطيط كل معناه التقني ابتداء من اللحظة التي تكون فيها فكرته الرائدة مستوحاة من الخارج، فهذا لا يكون تخطيطا، وإنما مجرد مهارة.[1]

يمكن القول أن مالك بن نبي إذ يركز على الإنسان وما يجب أن يتوفر عليه هذا العنصر من شروط وقواعد تتعلق بالناحية الإيمانية والنفسية والعملية، فهو بذلك قد وضع النقاط على الحروف، وأنا على يقين لو أن كتابات بن نبي وضعت في طريقها الصحيح وتحولت إلى مشاريع عملية لكفتنا مظاهر التخلف التي نعاني منها، وأشير أنه يمكن توليد قراءات متنوعة في موضوع الإنسان عند مالك بن نبي، وبالتالي الكتابة من عدة أوجه، أو في عدة مجالات، ومنها السياسة وم جال الحكم والتنظيم، الإقتصاد وإدارة الإنتاج والتحكم فيه وتطويره، التعليم ووضع السياسات والبرامج التربوية، الثقافة ومد المصطلح إلى أبعد مما هو عليه الآن.

2- التراب:

يعتبر التراب أحد العناصر الحضارية الهامة في معادلة مالك بن نبي وقد عالجه من جانبين:

- المظهر القانوني (التشريعي) يتصل الإنسان بالتراب من خلال صورة الملكية أي من حيث تشريع الملكية في المجتمع الذي يحقق الضمانات الاجتماعية.

[1] مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر سورية، 2009، ص 30-33.

- المظهر الفني: ويقصد به السيطرة الفنية والاستخدام الفني الذي تتيحه العلوم المختصة، كعلم التربة، أو الكيمياء....[1]

و يخضع تقييم التراب في فكر مالك بن نبي لمعيار تقدم الحضارة التي تحيطه أو تحده، والتي تعمل على استغلاله أحسن استغلال، وهذا ما حدث في الزمن الماضي والحضارة الإسلامية تعيش أوج قوتها، لكنها سرعان ما تراجعت، فتراجعت معها قيمة التراب التي أصبحت مهملة، وحيث يركز مالك بن نبي على قيمة التراب الاجتماعية وطبيعة من يملكه، فإنه برأيي وجب إضافة القيم الأخرى، وهي قيمة تنوع المساحات التي يتوفر فيها هذا التراب وهي مساحات متنوعة ومنتشرة، بالإضافة إلى قيمة نوعه فهو يقع في قارات مختلفة الأجواء والتغيرات الجوية وكميات المياه التي تنتشر في البحار والمضائق، والأنهار والمحيطات مما يسهل عملية ممارسة الإنتاج، يقول:" ونحن حين نتكلم عن التراب، لا نبحث في خصائصه وطبيعته، فليس هذا البحث من موضوع الكتاب، ولكننا نتكلم عنه من من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة، يكون التراب على قدرها من الانحطاط"[2].

يضيف بن نبي عنصرا أساسيا يزيد من أهمية التراب، هو هوية هذه الأمة وانتماءها أي "الإسلام"، فهذه الأمة ارتقت في زمن معين بظهور ونزول رسالة الإسلام، ومعها ارتقت قيمة العمل واستغلال وخدمة التراب، فتقوت هذه الأمة التي تأكل من تراب أرضها وتنتج في تراب أرضها، فتوفر الإنتاج، وكثرت الصنائع، وارتقت العلوم، لكن بعد هذه الأمة عن دينها جعلها تتخلف على مستوى كل الأصعدة، ومنها صعيد الإنتاج والاقتصاد، فأضحت بذلك لقمة

[1] الطاهر سعود: مرجع سابق، ص222.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص139.

سائغة لمن حولوا مجتمعات صغيرة إلى حضارات كبيرة تقود العالم وفقا لشعارات ابتليت بها الأمة الإسلامية والتي لم تحسن التعامل معها.

يلفت مالك بني نبي نظرنا وتصورنا إلى مشهدين، مشهد الجزائر ما بعد الاستقلال وغزو الرمال لبعض أجزاء المدن الغير صحروية، بالإضافة إلى الدول الواقعة في الشمال الافريقي التي أخلت بالتشجير والإقلال من مساحاته إقلالا بالغا، وما يحدث الآن من استغلال المساحات الخضراء وتحويلها إلى تجمعات اسمنتية ما يؤثر عليها في الزمن الحاضر، وبين المشهد في فرنسا التي أحسن استغلال عمليات التشجير في الناحية الغربية الجنوبية التي تحولت إلى أول منتج في العالم لنوع من الزيوت كما أصبحت ملجأ صحيا للمرضى من جميع أنحاء الأرض.[1]

ويمكن القول أن التراب هو المحيط كله والإنتاج الخاص -إنتاج الأنا المسلم- ضمن هذا المحيط، حيث يتم تركيز التفكير في التعامل مع الظروف المحيطة بما هو متاح من إمكانات داخل المحيط نفسه، وهي قاعدة تدعو إلى التفكير في الإنتاج واستغلال المحلي والوطني بكل الأساليب والوسائل المشروعة، ويكون ذلك "على مستوى المصطلح أو الإنتاج فلا يمكن الاستعانة دائما بما أنتجه الآخرون بل محاولة تجاوز ذلك إلى التفكير في الإنتاج، ويتم مواجهة ذلك بإنتاج حضارة توظف كل الطاقات الاجتماعية الموجودة وتنشئ تدريجيا وسائلها الفنية بقدر ما تتخلص من رواسب ومعوقات ما قبل الحضارة"[2].

يقول بن نبي:"فجميع أنواع الحلول ذات الصيغة الاجتماعية التي نقتبسها عن بلاد أخرى ثبتت لها فيها صلاحيتها، تشبه الصيغة الكيمائية لتركيب الماء، وهي صحيحة في هذه البلاد على وجه التأكيد، ولكنها تقتضي عند التطبيق

[1] المرجع السابق، ص 142، 143.

[2] مالك بن نبي: تأملات، ص62

عناصر مكملة لا تأتي معها، ولا يمكن أن تأتي معها، لأنه لا يمكن حصرها، ولا يمكن فصلها عن المحيط الاجتماعي في بلادها، أي لا يمكن فصلها عن روحها، وإذن، فلكي نواجه بطريقة فنية أية مشكلة اجتماعية، ينبغي ألا يقتصر عملنا على اقتراض الحلول التي تأكدت صحتها خارج بلادنا، إذ أن الصيغة المقتبسة صحيحة بلا أدنى شك، ولكن في إطارها الاجتماعي، وفي محيطها الذي تخلقت فيه".[1]

3- الوقت:

يشير مالك بن نبي إلى أهمية الوقت في جل مؤلفاته، وعادة ما يقرنه بالتجارب الناجحة في الدول الأوروبية والأسيوية التي قامت باستغلاله وتوظيفه بطريقة منظمة عبر المخططات والاستراتيجيات التي تنبع من مدارسها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

والوقت ثروة متدفقة يجب استغلالها بالشكل الجيد، وهي قيمة لا تقوم بالمال، وهو في العالم الإسلامي صار من قيم التخلي، لأن المسلم (العربي تحديدا)، صارت أوقاته مضاعفة على واجباته، فهو يؤديها في سويعات قلائل وما تبقى يهدره في مظان غير مظانه، وحال الأمة العربية والإسلامية يؤكد على صحة ذلك، ولننظر إلى النعم الموفورة التي تحظى بعما الأمتين، من امتداد جغرافي، ومناخ متنوع، وآيادي وعقول بمئات الملايينن، وفي النهاية الحال مأزوم والفوضى تعلن الانهيار الاخلاقي – ليس بالمطلق- ولكن من الشواهد ما يكفي للاستدلال والاستغراق في التوصيف السلبي.

و يرى مالك بن نبي أن الوقت نهر قديم يعبر العالم، ويؤكد على أهميته، لكنه يقف بحسرة على موقعه من العالم الإسلامي ليؤكد المشهد المزعج بعد عقد مقارنات مع دول متحضرة تحترم الوقت كما تحترم نفسها، يقول:"فنحن في العالم الإسلامي نعرف شيئا يسمى (الوقت)، ولكنه الوقت الذي ينتهي إلى عدم،

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 103.

لأننا لا ندرك معناه ولا تجزئته الفنية، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانيــة، ولســنا نعــرف إلــى الآن فكــرة الــزمن الــذي يتصــل اتصــالا وثيقــا بالتاريخ،...وبتحديد فكرة الزمن يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الـذي ينقصـنا، ...فالحيـاة والتـاريخ الخاضـعان للتوقيـت كـان ومـا يـزالا يفوتنـا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق، وخطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا..."[1].

ويقول:"إننـا إذا قسـنا الـزمن بمقيـاس السـاعات التائهـة، فـالقرن لا يسـاوي شيئا، بل حتى ألف سنة لا تساوي شيئا، أما إذا قدرنا الزمن بمقياس تايلور فإن كل دقيقة لها وزنها، الذي يكون معه للسنوات الخمسين التي مرت على الثورة السوفيتية ثقل هذه الدقائق المنتجة، والتي أتاحت لمجتمع معاصر لنا أن ينتقل من عهد الموجيك إلى عهد رواد الفضاء في برهة من الزمن جد قصيرة...إنه ليس من الضروري ولا من الممكن أن يكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئا، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الوقت" [2]

ويرى مالك بن نبي، أن من ضرورات تثمين الوقت هو العمل على توجيه الطاقات والقوي المتوفرة في المجتمعات العربية والإسلامية، والتي لم تستخدم للوصول إلى الهدف المنشود،" فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في العالم الاسلامي، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم أن يدار هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن الظروف الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وهذا الجهاز حين يتحرك فإنه يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود"[3]

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 145،146.

[2] مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر سورية، 2009، ص 68،69.

[3] مالك بن نبي:شروط النهضة، مرجع سابق، ص 84.

ويطرح بن نبي ومن منظور تثمين الوقت أو الزمن أيضا، مسألة الحقوق والواجبات، بشي من الدقة فيركز على ضرورة القيام بالواجب أكثر من التركيز على الرغبة في نيل الحقوق، وقد لا يوافق الكثير هذه القاعدة انطلاقا من خلفيات وحاجات ومصالح معينة، ، إلا إنني أوافق ما ذهب إليه في التأكيد عليها، فالواجبات أكثر من الأوقات، ولو التزم كل فرد أو مجموعة القيام بها، لأتت الحقوق سعيا، "فالمجتمع الذي يرتفع وينمو فإن ذلك يعني أن لديه رصيدا من الواجب فائضا، وقد دعا القرآن الكريم العباد إلى الطريق المستقيم وهو الطريق الواجب، والحقوق تلحق بالواجب بطبيعتها"[1].

يقول" لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة ونسينا الواجبات، نسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب بل فيما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال والأخلاق وما فيها من نقائص، وبدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات الباعثة إلى الحياة، فإنها أصبحت منذ 1936 سوقا للانتخابات، وصارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقي منه الخطب الانتخابية، فكم سمعنا من اسطوانات وكم رددنا عبارة (إننا نطالب بحقوقنا)، تلك الحقوق الخلابة المغرية التي يستسهلها الناس، فلا يعمدون إلى الطريق الأصعب طريق الواجبات[2].

وهنا لنا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم دروس أمام هذه المشكلة، إذ لنا من بعض رموزه دروس عميقة، دروس اجتماعية في صورة رموز بسيطة، يأتيه يوما أعرابي يسأله ما يقتات به، ففي هذه اللحظة الأعرابي يطلب حقا مشروعا له في الزكاة، والنبي ألم منا بهذا، ولكنه لا يحل القضية على أساس هذا الحق، بل يحلها على أساس الواجب فيشير على الصحابة رضوان الله عليهم

[1] مالك بن نبي: تأملات ، مرجع سابق، ص31.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 37.

قائلا: جهزوا أخاكم كي يحتطب، فالنبي أراد أن يقدم درسا لهذا الإنسان، ويحوله في الوقت نفسه من مجرد مستهلك يعيش على كاهل المجتمع الناشئ إلى منتج.[1]

ثالثا: الفكرة الدينية...تآلف وتعانق بين العناصر

يعتبر الدين أهم وأقوى وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي، من خلال ما يقوم به من وظائف في حياة الفرد والمجتمع واستقرار النظم الاجتماعية، وهو يضبط سلوك الأفراد في المجتمع بالثواب والعقاب في الحياة وفي الآخرة ، ويبرز أثر الدين وبالذات الدين الإسلامي كأداة ضبط فيما يشتمل عليه من تعاليم تمثل في مجملها مجموعة من الضوابط تظهر في العبادات المتعلقة في العلاقة بين العبد وخالقه سبحانه وتعالى، وفي المعاملات التي تعكس العلاقة بين الأفراد[2].

ومن الدعائم التي يعتبرها (الماوردي) ضرورية للضبط الاجتماعي ستة أمور هي:"دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح"[3]، والإرتقاء بالإنسان إلى مصف الإنسانية المكتملة والكمال لله، يحتاج إلى انضباط أخلاقي داخل المجتمع، هذا الانضباط ينبع من الوازع الديني أو الضمير وهما آليتان لتحضير الإنسان وجعله فاعلا إيجابيا حيث تواجد، وهما آليتان لحفظ التوازن السلوكي له داخل الجماعة مما يدفع بالسلوكيات السلبية إلى التراجع والاندثار، كالجريمة بأنواعها والعنف بأنواعه.

[1] مجالس دمشق، مرجع سابق، ص 121.

[2] سلوى علي سليم، الاسلام والضبط الاجتماعي، مكتبة وهبه، الطبعة الاولى، 1985، ص61.

[3] موسى ابو حوسه، قواعد الضبط الاجتماعي عند الماوردي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 17، المجلد 5، 1985، ص48.

ويثبت مالك بن نبي من خلال كتاباته أن الدين عنصر مهم في بناء أي حضارة، ويستشهد بصور عديدة من المحيط الأجنبي والمحيط الإسلامي، وتأثر كليهما ببعض في تطوير بعض البنى الحضارية، من علوم مادية وتجريبية، إلى علوم إجتماعية وإنسانية، فرؤية بن نبي للدين كفاعل أساسي في الحضارة حقيقة مثبتة وليست مجرد عاطفة عابرة بحكم الانتماء إلى المعتقد.

يقول:" كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي وجد سطورا من الفكرة الدينية ولقد أزهر علم الآثار بقايا لها خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيا كانت تلك الشعائر ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصري الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه فولدت الحضارات في ظل المعابد...و من هناك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تنير العالم، وتزدهر في جامعاته ومعامله، وتجلي المناقشات السياسية في برلماناته، فقوانين الأمم المتحدة لاهوتية في أساسها، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني، فإنه ديني في جوهره..."[1].

إن العلاقة بين الدين وظواهر المجتمع تتحدد بفرضية وتفسيرات، فالفرضية عند بن نبي هي الفكرة الدينية، والتفسيرات هي الإلمام بظاهرة التغيير الاجتماعي والوصول إلى الحضارة في مجتمع من المجتمعات في مرحلة من مراحل التاريخ البشري، وحلل بن نبي سقوط المجتمعات وتدهورها نتيجة لغياب الوظيفة الاجتماعية للدين.[2]

يقول بن نبي:" ولكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط لتبدوا الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي إذ هو

[1] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009، ص 69.

[2] نورة خالد السعد: التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية، 1997، ص 118.

لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت".[1]

إن الدين يتجلى أيضا في العلاقة الروحية بين المعبود والإنسان وهي عامل مهم في تمتين العلاقات الاجتماعية وتنظيم المجتمع وتهيئته للقيام بدوره التاريخي، -و حتى المستقبلي- ويحقق نشاط أفراده من خلال العمل المشترك، فالدين يربط أهداف السماء بضرورات الأرض فالجانب الغيبي للدين هو الذي يوفر المبررات ويوجد الإرادة الإجتماعية،...وإن انعدام النزعة الحقيقة للإيمان بالغيب يؤدي إلى فقدان العمل لفاعليته الاجتماعية، بحيث يصبح الإيمان محصورا في نطاق الفرد فاقدا لإشعاعه[2]، ومن قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات:56)، فإن الله تعالى لم يرد بهذا القانون-العبادة- أن يفصل الناس عن الأرض- محل السعي والاستخلاف- ولكن أراد ان يفتح لهم طريقا خيرا ليضطلعوا بعملهم الأرضي، والتاريخ يرينا مدى القدرة التي امتاز بها المسلمون الأوائل حين ساروا في هذه الطريق، ووفقا للقاعدة "إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بانفسهم" (الرعد:11)، هذا التغيير هو الذي يتسهل به المجتمع الحياة[3].

"فسواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي، أو المجتمع المسيحي، أم كنا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم، أو اختلفت تماما عن الوجود، نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست، بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية، ومعنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 30،31.

[2] نورة السعد، مرجع سابق، ص 119.

[3] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص

تحمل مقاديره، كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود"[1].

و من المؤكد أنه عندما نتناول الحضارة الإسلامية فلا بد من أن يدخل في اطرادها بالضرورة عاملان هما: الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد نفسه، والإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة.[2]

و تقوم الفكرة الدينية التي رافقت تركيب الحضارة خلال التاريخ بمزج وتجاوب عناصر ثلاثية مع بعضها البعض هي: الإنسان، والتراب، والوقت، هذا المزج يعفي بعض المجتمعات من تكديس ما تنتجه الحضارات الأخرى ويدفع بها إلى محاولة البناء والتعويل على الذات " إن المقياس العام لعملية الحضارة ليلقي لنا ضوءا كاشفا على السلبية النسبية وانعدام الفاعلية في جهود المجتمع الاسلامي، إن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها"[3]

"ولقد ترتبت على الواقع المتمثل في إهمال العالم الاسلامي لهذا المظهر، النتيجة التي نشاهدها حيث اقتحم الزي الأروبي، والبوق، والطنبور والهاتف، والسيارة شتى بلدان العالم الاسلامي منذ خمسين سنة، ولكن مشاكل التخلف ظلت راسخة القدم داخل هذه البلدان، فقد أردنا بدل الاضطلاع بتشييد حضارة، أن نقوم بتكديس منتجاتها، ولم يكن عمل النهضة الإسلامية طوال السنوات الخمس الأخيرة يمثل تشييدا ولكن تكديسا للعتاد، والمؤسف أن روح التكديس والشيئية التي يجب التخلص منها ما انفكت مستمرة البقاء".[4]

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 56.

[2] مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 84.

[3] مالك بن نبي:شروط النهضة، مرجع سابق، ص 47.

[4] مالك بن نبي: القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 50.

ويصف بن نبي رسالة المسلم الأساسية في هذا العالم المتغير، بأنها رسالة واضحة المعالم، والمبادئ التي لا يجب أن يحيد عنها بمجرد هبة ريح ضعيفة، منطلقها الكتاب والسنة، وبناءها الإيمان والأخلاق، كما كانت في مجموعها أثناء بناء الدولة الأولى –دولة الرسول صلى الله عليه وسلم- " فبهذا يستطيع منذ البداية أن يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، حتى لو عاش في مجتمع لا يتفق مع مثله الأعلى، ويستطيع أن يواجه أيضا على الرغم من فقره أو ثرائه ومهما يكن قدر الظروف الخارجية الأخلاقية أو المادية، وهو بهذه الطريقة يستطيع أيضا أن ينشئ وسطه الخاص شيئا فشيئا، حين يؤثر على الظروف الخارجية بحياة نموذجية ينتقل أثرها إلى ما عداها، كما كانت حياة حفنة الرجال الذين عاشوا حول النبي صلى الله عليه وسلم بمكة أيام الإسلام الأولى"[1].

و لتحقيق المضي على المنهج الإسلامي الأول المزدهر، يرى مالك بن نبي ضرورة تجنب التعلق الواهم بالماضي الاسلامي المتفوق، وتجنب الإيغال في نزعة المديح، فالتعلق بالماضي المتوفق ونزعة المديح المفرط، تصاحب الفكر العربي والإسلامي المعاصر والحاضر، وتجدني أصفها بالمبالغة والسلبية، وقد استهلكت هذه النزعة فرص التقدم والتطوير والعمل الإيجابي، يقول مالك بن نبي: " فحين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام بل ينتكس إلى وراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي، كأنما قد أصبحت متنفس له".[2]

بعد هذه القراءة المختصرة لعناصر الحضارة والمركب الديني لها، أخلص إلى أن منهج مالك بن نبي الاستشرافي يقدم تصورا واضحا للنهضة

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 114.

[2] مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص 60.

والتقدم من جديد، فقد استعان بالمورث التاريخي للأمة الإسلامية وهي في أوج قوتها وازدهارها والموروث التاريخي للدول الأجنبية وانطلاقها نحو التطوير، ومن خلالهما كان يعالج الظواهر والقضايا التي عاصرها ويقترح الحلول.

رابعا: الإسناد المعرفي للرؤية التكاملية

والمقصود بها أهم الأفكار والتجارب الذي استند إليها مالك بن نبي لصياغة المشروع الحضاري والرؤية التكاملية لعناصر الحضارة بغية النهوض بالمجتمعات المتخلفة، فجمعت كتاباته مرجعيات هامة غربية وعربية، كما جمعت شخصيات فكرية يعتد بها في الحقول المعرفية المختلفة، واعتمد مالك بن نبي في تآليفه على تجاربه الشخصية بحكم احتكاكه بمختلف الجنسيات، وكان للأفكار التاريخية حضور كبير، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامي، ونشأة الدولة الاسلامية الأولى في المدينة المنورة، كما استند مالك بن نبي إلى آي القرآن الكريم للتدليل على صحة وأهمية أفكاره، وتطبيقات الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والخلفاء من بعد.

في عرضه لعناصر الحضارة، يورد ابن نبي آيات كثيرة تتعلق بالإنسان، وما يجب أن تكون عليه أخلاقه وسلوكياته، وفق سلم ترتيبي تقتضيها وظيفته، فالمسئول وبموجب الصلاحيات التي يملكها، لا يحق له أن يتفرد بالحكم ويتعسف فالمشورة وتبادل الرأي مع أهل العلم والكياسة واجبة بحكم الأمر الوارد في الأية الكريمة في الأية:" وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ" (آل عمران:159)، وهو مطالب بإقامة العدل والحكم بالعدل لسياسة أفراد المجتمع" وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ" (النساء:58).

ويشير بن نبي في معرض التأكيد على الفاعلية والقيام بالواجبات وتحقيق ما سبق إليه المسلمون الأوائل، وما توصلت إليه التجارب الغربية الرائدة في

مجالات الاستثمار والإدراة والتخطيط إلى الأية "إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ" (الرعد:11)، وهي تتكرر بمعدل كبير في كتاباته.
ويستشهد بالأية" كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ"(آل عمران:110) ليؤكد على الروح الجماعية في تنمية المجتمع وحماية الإنسان، والإصرار على فعل الخير وترك الشر، ويعقد بن نبي مقارنة بين التعاليم المسيحية وتعاليم القرآن الكريم، ليؤكد عظمة هذه الآية.

كما يسوق بن نبي الكثير من الأحاديث التي تؤكد على ضرورة العمل والقيام بالواجب التي تؤطره النظريات الكثيرة ومنها"والَّذي نفسي بيدِه لأن يأخُذَ أحدُكم حبلَه فيذهبُ فيحتطِبُ ثمَّ يأتي به فيحمِلُه على ظهرِه فيأكلُ منه خيرٌ له من أن يسألَ النَّاسَ ولأن يأخذَ ترابًا فيجعلُه في فيه خيرٌ له من أن يجعلَ في فيه حرامًا"[1]، ويدعو إلى التكافل واحترام الإنسان وحقوقه البشرية وفيها مقارنة لما تدعو له نظريات حقوق الإنسان ومواثيقها الدولية:"إ خوانُكُم جعلَهُمُ اللَّهُ تحتَ أيديكُم ، فأطعِموهم مِمَّا تأكُلونَ ، وألبِسوهم مِمَّا تلبَسونَ ، ولا تُكَلِّفوهم ما يغلبُهُم ، فإن كلَّفتُموهُم فأَعينوهُم".[2]

ولا تسع هذه الورقات مجموع الآيات والأحاديث التي يسوقها بن نبي في حديثه عن الإنسان وهو الفاعل الأول في بناء الحضارة باستغلال العناصر الأولى، ويقرنها بمقاربات غربية هامة في ظل ما يسمى بالرؤية التكاملية.

يستعين بن نبي في كتاباته عن الحضارة وتركيبها ودورتها بأفكار ابن خلدون في تفسيره لدورة الحضارة، هذا الأخير لم يقف عند مصطلح الحضارة وكان يركز في كتاباته على ناتج من نتائجها وهي الدولة، وأفكار ماركس في

[1] الراوي : أبو هريرة، المحدث : المنذري المصدر : الترغيب والترهيب،الصفحة أو الرقم3 18/، خلاصة حكم المحدث : إسناده جيد

[2] الراوي : أبو ذر الغفاري، المحدث : الألباني، المصدر : صحيح ابن ماجه، الصفحة أو الرقم 2991 ، خلاصة حكم المحدث : صحيح.

تطبيقه للجدلية المادية، باعتبار الاتجاه المادي التاريخي الذي كان سائدا في أوروبا، فالحضارة عنده هي نتاج الضرورات المادية والحاجات الأساسية للإنسان، والفيلسوف شبنجلر الذي يفسر الحضارة بأنها ثمرة لعبقرية خاصة، وأرلوند توينبي الذي فسر نشأة الحضارة بتضخيم العامل الجغرافي ودوره الأساسي في ذلك هذا العامل الذي يدعوه بالتحدي يفسر نشأتها على أنها رد معين على تحد معين.

يستفيد بن نبي من أفكار شاخت الاقتصادية التي نجح تطبيقها في ألمانيا وفشلت في أندونيسيا، بسبب الخطأ في تقدير المعطيات البشرية في المجال الاقتصادي، كما يستفيد من المعادلة الاجتماعية ومن مذهب تايلور عن الإدارة العلمية وتفكيره في تنظيم الإنتاج كما تحضر أفكار سقراط وأفلاطون وأرسطو وتوماس الأكويني، في البناء الفكري له.

ويعتمد أيضا على آراء لكسرلنج في الموضوع، التي استخلصها من دور الفكرة المسيحية في تركيب الحضارة الغربية، وأفكار ماتسي تونج عن مشكلة الثقافة والأفكار، حيث يرى أن القلم سلاح في المشكلة، وجميع أفكاره التي انعشت المجتمع الصيني وقادته إلى تحقيق نجاحات باهرة.

يستعين مالك بن نبي بحقول معرفية مختلفة كعلم النفس ، فعادة ما يستخدم مراحل الطفولة للدلالة على عالم الأفكار وإنتاجها ، وهي المرحلة الأخيرة، بعد مرحلة الأشياء، والأشخاص، كما يستعين بعلم الرياضيات للدلالة على مجموع العناصر التي تشكل الحضارة، الإنسان، التراب، الزمن، أو تحقيق المعالة الاجتماعية والاقتصادية وعلم الكيمياء لتحديد درجة تفاعل هذه العناصر.

وله في تجارب الدول الأسيوية كالصين واليابان واندونيسيا وماليزيا، وتجارب الدول الأوربية كألمانيا خير تجارب على تمثل المناهج المعرفية وتطبيقها خير تمثيل. ويؤكد على النموذج الصيني (الثورة الثقافية) وتحدي الواقع وتعديله في الاتجاه الذي يراه.

خامسا:نتائج البحث

- تعني الحضارة عند مالك بن نبي، توفر مجموعة من الشروط المادية والمعنوية، ويعد الدين منشأ كل حضارة.

- يعد الإنسان في فكر مالك بن نبي محور عملية التغيير وهو الفاعل فيه، ومنطلق التغيير هو النفس باعتبار الآية الكريمة:" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍحَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ" (الرعد:11)، وهو شرط ضروري من شروط الارتقاء في سلم الحضارة.

- يصوغ مالك بن نبي مجموعة محاور للتأكيد على دور الإنسان في الزمان والمكان، تتعلق هذه المحاور بالبعد الأخلاقي والنفسي، والاقتصادي، والاجتماعي، يصوغها مالك بن نبي في سياقات مختلفة للحث على البناء والتعمير.

- يلح مالك بن نبي على طرح فكرة الفعالية، باعتبارها الرابط الذي يجمع بين منطق الفكرة ومنطق العمل من أجل القضاء على السلبية التي تشيع في المجتمعات المتخلفة عبر خلاياه الدقيقة، ومنها تحويل مبادئ القرآن إلى سلوكيات فعليه بدل الإكثار من الكلام عنه، وكأن مالك بن نبي يرفع شعار: "نريد قرآنا يمشي لا نسخا تتكدس وخطبا تتبجح".

- عادة ما يعقد بن نبي مقارنة بين إنسان الغرب، والإنسان المسلم، منبها إلى تفوق الأول في كل المجالات، لأنه مؤمن بما يعتنق، والواجب عنده أكثر من الوقت.

- يحمل مفهوم التراب عند مالك بن نبي معاني ودلالات واسعة، فهو من وجهة سياسية قانونية تلك الرقعة الجغرافية التي تحدها الحدود، وهو من الناحية الاقتصادية المصدر الرئيسي للإنتاج الزراعي والصناعي على حد سواء، وهو من الناحية المعنوية، الإنتماء والولاء للفكرة والدين.

- يأخذ الزمن عند مالك بن نبي أهمية كبيرة لأنه عامل مهم من عوامل بناء الحضارة، ويدعو مالك بن نبي وضمن أطر كبرى لاستثماره وتوظيفه في الصالح العام، بدل المصلحة الخاصة والبحث عن تحقيق الذات.

- لا يمكن للعناصر الثلاث أن تمتزج إلا بوجود العامل الروحي، الذي يتلخص في الفكرة الدينية، أو الإيمان وهو التسليم المطلق لإرادة الله عز وجل والعمل ضمن هذه الإرادة في حدود ما شرع، وأمر وأحل وحرم، ثم العمل ضمن دائرة اتباع هدي الرسول صلى الله عليه وسلم.

- يستند بن نبي في البرهنة على صحة أفكاره إلى علوم مختلفة، بحكم تخصصه، من رياضيات وكيمياء، وبيولوجيا، كما يستند لعدة مرجعيات عربية وغربية، وعلى رأسهم إبن خلدون، واستفاد إبن نبي كثيرا من فن الملاحظة التي أصبحت أداة علمية للوصف.

خاتمة

بعض العرض المتواضع لفكر مالك بن نبي حول الحضارة وعناصرها والرؤية التكاملية بين المعارف في عرضها، يمكن القول أن المفكر الإسلامي لم يقتصر في الكتابة على زمن أو مكان معينين، فهو يحمل هما وهاجسا للعودة بالحضارة الإسلامية إلى أوج قوتها عبر إحيائها ماديا وروحيا، ولا يتم ذلك إلا بوضع تصور واضح يصاغ وفقها، هذه التصور يستند إلى الفكرة الإسلامية، والتي مرجعها الكتاب والسنة، كما يستند إلى التجربة والخبرة الإنسانيتين التي أضافتا الشيء الكثير إلى هذا المجال.

يؤكد مالك بن نبي أن الحضارة لا ترتكز على عناصر بعينها وإنما هي كل يجب أن يشارك فيه جميع الأفراد، فهي مفهوم شمولي يجب أن يتجسد في كل جوانب الحياة، الذوق، الجمال، البيئة، العمران، السلوك، العلاقات الاجتماعية، الإدارة، الاقتصاد، التمثيل السياسي، والتخطيط، ويكتب مالك بن نبي عن الكثير

من المحاور التي توجه الفرد والمجتمع إلى البناء الحضاري، وعمارة الأرض وفق سنن التاريخ الصحيحة، وسنن الكون والنفس،

يرجع مالك بن نبي للقرآن والسنة، للاستدلال على صحة ما يذهب إليه من طرح حول الحضارة ودلاتها، فيستشهد بآي القرآن حول التغيير وأهميته، كما يستشهد بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإصلاح ، فينشد بذلك اكتمال فكرته ومثاليتها.

يهدف مالك بن نبي في صياغة رؤيته إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان وتفعيله فهو الذي يعول عليه في الانتقال من أجواء التخلف والتبعية، إلى أجواء التطور والقيادة الحضارية، ويعتمد في ذلك على جملة معارف تاريخية، وفكرية، وأخلاقية، ومادية، ترجع إلى أشهر المفكرين والكتاب، أمثال ابن خلدون، وتوينبي، والأكويني، وماركس، ولا يعني أنه يتمثلها ويتبناها، إنما يقوم السالب منها ويستفيد من الموجب فيها.

يؤكد مالك بن نبي أن عامل الدين أهم عامل لتأليف عناصر الحضارة ، ويشير إلى وجوب الاقتداء بإنسان ما قبل الموحدين، فهو نموذج الإنسان الفاعل الذي انطلق بحضارته إلى الحضارات الأخرى، بثقة ووعي.

التوصيات:

- دعوة إلى القراءة وإعادة القراءة في في فكر مالك بن نبي الموسوعي، قراءة واعية ومتأنية والاستفادة قدر الإمكان منه، باعتباره فكرا ذو أبعاد قيمية، يعالج واقع المجتمع الجزائري والعالم الإسلامي ويستشرف مستقبلهما في العديد من المجالات.

- يعد طرح تكامل المعرفة عند العلماء المسلمين والدعوة إلى تجديد أساليب هذا الطرح، مجال مهم في تحريك عجلة الأمة ونقلها إلى حال أفضل والمطلوب أو المستحسن تنظيم لقاءات وبرمجة مواد له في كل الجامعات الاسلامية والعربية.

- تبادل الأطروحات والرسائل الجامعية التي تناولت هذه الشخصية الهامة وكتبت عنها في المجالات العديدة لخدمة الحضارة، بين الجامعات للاستفادة منها وتبادل المعارف بخصوصها.
- توجيه طلبة الدراسات العليا للكتابة في الفكر الموسوعي لعلماء النهضة والاهتمام بها.

مراجع البحث

1. القرآن الكريم
2. الحديث النبوي
3. أسعد السحمراني، مالك بن نبي"مفكرا إصلاحيا"، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986.
4. بشير ضيف الله: فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2005، ص 75.
5. سلوى علي سليم، الاسلام والضبط الاجتماعي، مكتبة وهبه، الطبعة الاولى، 1985.
6. الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، لبنان، 2006.
7. عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار، ط2، 2007.
8. مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر سورية، 2009.
9. مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009.
10. مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، سورية، 2009.
11. مالك بن:شروط النهضة، دار الفكر، سورية، 2009.
12. مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، سوريا، 2009.
13. مالك بن نبي: فكرة الافريقية، الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009.
14. مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، سورية،2009.
15. مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، سورية، 2009
16. مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، دار الفكر سورية، 2009.

17. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، 2009.
18. مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر، سورية، 2009.
19. مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر سورية، 2009
20. مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر، سورية، 2009.
21. مالك بن نبي:وحهة العالم الإسلامي، دار الفكر، سورية، 2009.
22. موسى أبو حوسه، قواعد الضبط الاجتماعي عند الماوردي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 17، المجلد 5، 1985.
23. نورة خالد السعد: التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية، 1997.